المقتطف

الجزء الثالث من السنة الثالثة عشرة

١ كانون الاوّل (ديسمبر) سنة ١٨٨٨ = الموافق ٢٧ ربيع اوّل سنة ١٣٠٦

السيكوفزيولوجيا

او الفلسفة الفزيولوجيّة

مَن تتبّع ارتقاء الانسان في معارج العمران وتقدُّم مداركهِ في مطالب العلم والعرفان، رأى للعقل ادوارًا ينهض فيها ويتطاول الى كشف الغوامض فيصيب منها الشيء اليسير ثم يتجزر مَدُّهُ ويحسر عِدُّهُ ويلبث حينًا من الدهر غافلاً خاملاً الى ان يقيّض لهُ الله ما يوقظهُ من غفلاتهِ ويحرّكهُ من سكناتهِ فيشبّ وينهض وينوت الحدّ الذي بلغهُ اولاً ثم ينحسر ويتقاعد الى ان يتهيّأ لهُ النهوض مرةً أُخرى وهلمّ جرًّا

وعليهِ ترى انهُ بعد ان خَبَتْ نار الفلسفة التي اضرمها افلاطون وارسطو تأجّج سعيرُها في ايام الفارابي والغزالي وابن زهر وابن رشد. ثمّ خَبَتْ حتى كادت تنطفئ ولبثت كذلك الى ان اضرمها ثانيةً دكارت وليبنتز وكنْت وغيرهم من فلاسفة القرنَيْن الماضيَيْن. ودارَ عليها الدورُ فخمدت ثانيةً ثمّ عادت في هذه الأيام فاضطرَمَتْ والمضرمون لها الفزيولوجيّون والانثولوجيّون والاقتصاديّون وغيرهم من الذين بنوا العلمَ على العمل وأثبتوا الحقائقَ الفلسفيّة بالتجربةِ والامتحان

والفلسفةُ من اوّلِ عهدها قد انقسمَتْ الى قسمين قسم داخلي مدارُهُ شرائعُ العقل المبنيّة على ما يشعرُ بهِ الانسان من نفسهِ وقسم خارجي مدارُهُ ما يراهُ الانسان في غيرهِ وفي بقيّة انواع الحيوان ممّا يدخل تحت موضوع الفلسفة. ولكنّ الفلاسفةَ المتقدّمين قصروا بحثهم على القسم الاوّل وقلّما خاضوا في الثاني. والآن قد انقلبَ الامرُ فترى همّةَ العلماء والفلاسفة

المحدثين مصروفةٌ الى القسم الثاني ولذلك يُطلَق عليهِ اسم الفلسفة الحديثة

وأثبتُ فنون الفلسفة الحديثة الفنّ المعروفُ بالفلسفةِ الفزيولوجيَّة او السيكوفزيولوجيًّا فان قضايا هذا الفن كادت تُعَدُّ من الحقائق المقرَّرة . ومن أهمّ مباحثهِ تحديد مراكز القوى العقليَّة وحقيقة الوراثة ونتائجها والتنويم المغنطيسي والشعور المزدوج . وهي عين المباحث التي وجّهنا الافكارَ اليها في صفحات المقتطف مرارًا كثيرة والتي نرى القرّاء الكرام شديدي الاهتمام بها ولذلك رأينا ان نخصّ في هذه المقالة بعض ما اتّصلَ اليهِ الفلاسفة الباحثون فيها فنقول

اعتقدَ القدماء من عصر ارسطو أنّ الدماغَ مركزُ العقل ولكن لم يُذكَر أنّ احدًا حاولَ تعيين مراكز القوى العقليَّة قبل الشهير غَل زعيم الفرينولوجيين فانهُ عيَّن لكل قوَّة من القوى العقليَّة والادبية مركزًا محدودًا في الدماغ وادَّعى انهُ يعرفهُ من النظر الى ظاهر الجمجمة . وقد أُهمل مذهبهُ الآن ونُسجَتْ عليهِ عناكب النسيان لانهُ لم يقوَ على نار الامتحان . ولم يستفِدْ منهُ علم الفلسفة شيئًا الّا تنبيه مقاوميهِ الى البحث عن وظائف الدماغ الحقيقيَّة وتعيين مراكز القوى العقليَّة . ومن اشهر هؤلاء المقاومين الدكتور فلورنس الفزيولوجي الذي طرق هذا الموضوع على الاسلوب العلمي الحديث اسلوب الامتحان في ادمغة الحيوانات . ومن ثمّ أخذ هذا البحث يتّسع فعُرِفَتْ مراكز الحس والحركة في الدماغ والحبل الشوكي . وعُلِم ان النوى العاقلة مركزها في الجوهر السنجابي من الدماغ وحُدِّدَت بعض المراكز تحديدًا مدقّقًا كمركز الذاكرة على انواعها ومركز النطق ومركز القراءة ومركز الكتابة . ومن ثمّ عُلِم السبب الذي لاجلهِ يفقد بعض الناس قوَّة النطق ولا يفقدون قوَّة القراءة او يفقدون قوَّة القراءة ولا يفقدون قوَّة الكتابة وينسون بعض المحفوظات ولا ينسون غيرها وتمكّن الاطباء من شفاء بعض الآفات العقليَّة بمداواة مراكزها في الدماغ او بازالة ما طرأ عليها من الطوارىء . فاستفاد فنّ العلاج من ذلك قواعد لا تقدَّر

وحتى الآن لا يُعلَم كيف تحصل ملكة اللغة وكيف تحفَظ المدركات في الدماغ ولا ما هو نوع التأثير الذي يحدث في دقائق الدماغ حتى تحصل للانسان هذه الملكة او تلك ولكن قد تمهّدت السُّبُل الى هذه المسائل كلها ومَن يستطيع ان يحكم باستحالة حلّها . وكأنّ الفزيولوجيين جغرافيّون عيّنوا مواقع البلدان وحدودها واوصافها الطبيعيَّة ولم يعلموا شيئًا عن كيفيَّة تكوّنها الى ان قامَ الجيولوجيون وأزاحوا الأستار عن سرّها الحقيقة فظهرت كالشمس في رائعة النهار . وإنّا نرجو ان يقوم من علماء هذا العصر وفلاسفتهِ مَن نسبتهم الى الفزيولوجيين نسبة الجيولوجيين

الى الجغرافيين فنعرف كيفيّة ارتباط النفس بالجسد حق المعرفة

هذا وقد ذكرنا في المجلد الرابع من المقتطف في الكلام على وظائف الدماغ وفي المجلد العاشر في الكلام على تعدُّد الذاكرة اكثر ما عُرف الى هذا العهد من مراكز القوى العقليّة. وسنعود الى هذا الموضوع في فرصة أُخرى لان مجال البحث لم يزل واسعًا ولو كانت الاكتشافات غير كثيرة

المبحث الثاني حقيقة الوراثة ونتائجها وهو من المباحث التي طرقتها الفلسفة الحديثة للوقوف على كنه الوراثة وافعالها. ومن الغريب ان الفلاسفة المتقدمين اهملوهُ وعدّوا الانسان شخصًا مستقلًّا لا علاقة له بوالدَيْهِ ولا باولادهِ. ورأَوا فعل الوراثة الجسدي ولكنهم لم يلتفتوا الى تأثيرها العقلي ولم يحفلوا عن نواميسها مع انهم لم يجهلوا ان الجسد يؤثر في العقل. وقد ثبت الآن ان جسد الانسان هو صورة اجساد اسلافهِ ونتيجة ما طرأ عليهم من الطوارئ التي كيّفت بنيتهم. والمرجح ان عقلهُ ايضًا هو صورة عقولهم واخلاقهُ صورة اخلاقهم. وتتوالى قواهُ العقلية في ظهورها بحسب ما ظهرت في اسلافهِ واسلاف اسلافهِ من قديم الزمان. ولا يمكننا الخوض في هذا الموضوع الآن فنكتفي بهذا الالماع

المبحث الثالث التنويم المغنطيسي وهو من اغرب المباحث واعجبها وينتظر منهُ اكثر مما ينتظر من غيرهِ من المباحث الحديثة. وقد كانت جرثومتهُ معروفة من قديم الزمان. وما الصورة التي اظهرهُ فيها مسمر الّا صورة خرافية ملفقة من درهم من الحقائق وقنطار من الاباطيل فرفضها العلماء في اوّل الامر لما بان عليها من سيماء البطل ثم محّصوها بنار الامتحان فاحترق زيفها وظهر جوهرها وعلم ان التنويم المغنطيسي حالة طبيعيّة تقوى في بعض الناس لاسباب مزاجيّة او مرضيّة حتى يمكنك ان تؤثر فيهم تأثيرًا عقليًّا يستولي عليهم زمانًا طويلًا وبهِ تشفيهم من بعض الامراض العصبيّة او تؤثر في اخلاقهم وآدابهم فتقوّمها اذا كانت معوجّة او تعوجها اذا كانت مستقيمة. وما يؤثر في النائم النوم المغنطيسي قد يؤثر في اليقظان اذا كان ضعيف الارادة والحكم فانك اذا اخبرت الطفل الصغير ان هبوب الريح هو صوت حيوان هائل المنظر لم يبعد ان يرى ذلك الحيوان بعينيهِ. واذا اقنعتهُ ان ملاكهُ او شيخهُ سيزورهُ في الليل لم يبعد ان يرَ احدهما وهو نائم

وهذا الاقتناع العقلي قد يكون سببًا لسماع اصوات لا وجود لها الّا في مخيلة سامعها بل قد يكون سببًا لظهور آفات جراحية في الجسد كما يحدث للذين تفعل بهم الرقادة البسيطة فعل الحرّاقة اذا اقتنعوا انها حرّاقة. والارجح ان الروايات الغريبة التي ذكرناها في باب الاخبار في الجزء الماضي هي من هذا القبيل. وبدخل في هذا المبحث مسألة حرّية الارادة ومسؤولية

الانسان وقد اشبعنا الكلام عليها قبلاً في مقالة موضوعها "هل الانسان حرّ الارادة"

المبحث الرابع ازدواج الشعور. وهذا ايضاً من المباحث الجليلة التي تبحث فيها الفلسفة النزيولوجيّة وقد افردنا له مقالة مخصوصة في المجلد الحادي عشر موضوعها "تعدد العقل" وطرقنا هذا الموضوع ثانية في الكلام على مخادع النفس في المجلد الثاني عشر. وقد استنتج بعض الفلاسفة من الحوادث التي ذكرناها في تينك المقالتين وما يشبهها من الحوادث الكثيرة ان في الانسان نفسين او وجدانين احدهما يفعل في اليقظة او في الصحة والآخر يفعل في المنام او في المرض وقد يعلم احدهما ما يدركهُ الآخر وقد لا يعلمهُ. وهذا الفرض يحلّ كثيرًا من المشكلات التي لا تُحل بدونهِ. ومعلوم ان الفلسفة الفزيولوجية لم تزل في بدء نشأتها فلم تمحص اصولها حتى الآن ولا حُتّمت مذاهبها ولكن الباحثين واثقون بنجاحها "واذا رأيت من الهلال نموّهُ ايقنت ان سيصير بدرًا كاملاً"

وقد اعترض على هذه الفلسفة انها مهّدت السبيل لتعاليم الماديين وهو اعتراض ساقط لان زعماء هذه الفلسفة كلهم من الذين يبذلون جهدهم في تعزيز شأن الدين ومناقضة تعاليم الماديين. وسواء كانوا كذلك ام لم يكونوا وسواء كانت هذه الفلسفة مناقضة لرأي الماديين او معزّزة لهُ فما دامت تقرّر الحقائق لا غير فهي حريّة بالاحتفاء والاحتفال مهما تقوّل الناس. والعقل لا يقيّد فحيث رأى نور الحقيقة اتّبعهُ وغضّ الطرف عمّا سواهُ مصداقًا لقول ابي الطيب المتنبي

خذ ما تراهُ ودعْ شيئًا سمعت بهِ في طلعة البدر ما يغنيك عن زحلِ

مثال ذلك ان بعض امور النجوم التي كُشفت الآن يظهر انها ستنقض بعض المعتقدات القديمة فاذا ثبتت وعدّت من الحقائق لم يستطع العقل ان يكابر فيها بل غلّبها على ما يناقضها مناقضة صريحة مهما كان نوعهُ. ومهما اتسع نطاق الفلسفة النزيولوجية لا تتطاول الى البحث عن اصل النفس وحقيقتها لان ذلك من مباحث ما وراء الطبيعة

السبيل لمنع المسكرات

هل من سبيل لمنع المسكرات او هل من طريقة لاقناع ذويها انهم انما يشربون سمًّا زعافًا وهل يرجى اصلاحُ مَن يبيتون في نشوتهم ويصبحون عبثًا تحاول ذلك الحكومة وجزافًا يذهب الكلام في ذلك السبيل ما لم يُتلافَ الامرُ بادئ بدء ويرضع الطفل كراهيّة المسكر مع لبن أمّهِ. ذلك عرفتهُ الحكومة الاميركيّة فاصدرت امرها مؤخّرًا بالزام التعليم في كل مدارسها بفنّي الفيسيولوجيا والهيجين مع التفات خصوصي الى اضرار المسكرات ونحوها من المخدرات والمنبهات فعُمِل بامرها في خمس وعشرين من ولاياتها وهو عمل يذكر فيشكر